وقفة مع

لطفي عيسى
في مسالك الذاكرة الجمعية

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أسئلة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع قرّائه. «حرصتُ ألّا أجدّف ضمن الاتجاهات السائدة وهي تتكئ على الثنائيات السطحية في صياغة تصوّراتها»، يقول المورّخ التونسي في حديثه إلى «العربي الجديد»

لطفي عيسى

يميل البحث بالعربية إلى الإنشاء على حساب صناعة الدلالة

إعادة اختراع اليومي تبدأ بتوسيع نطاق المدركات الجمعية

تونس ـ **العربي الجديد**

■ ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

أتابع مثل بقية الناس حالة الهلع التي انتابت العالم جراء استشراء الوباء المستجد، والتأثير الكارثي لذلك على اقتصاديات جميع البلدان. كما أسبر هيمنة أشكال الذكاء الافتراضي وتدبير الحياة اليومية عن بُعد، وتغذية المخاوف المتّصلة بمشاكل المحيط وعجز النظام الصحي عن مجابهة الجائحة، وتعاظم سطوة التشدّد الديني والتصوّرات اليمينية المحافظة، وتفاقم الانخراط الجمعي في مساوئ الديستوبيا وجميع الرؤى القيامية.

■ ما هو آخر عمل صدر لك؟ وما هو عملك القادم؟

أنتظر صدور كتاب جديد يحمل عنوان «مساءلة الانتماء من منظور المباحث التاريخية التونسية»، ستنشره دار «كلمة» بتونس، وذلك ضمن سلسلة جديدة أديرها، وتحمل عنوان «البصمة والمنوال». أمّا قادم مؤلّفاتي فيتمثّل في الانتهاء من ترجمة كتاب «الذاكرة الجمعية» لعالم الاجتماع الفرنسي موريس هالفاكس، إلى لغة الضاد، وهو مشروع في لمسائه الأخيرة.

■ هل أنت راضٍ عن إنتاجك ولماذا؟

هذه مسألة نسبية، فأنا أبذل ما في وسعي لتطوير عروضي الفكرية، وأبحاثي المعرفية، ومختلف المشاريع التي أنا بصدد تحويلها من مستوى الفكرة التي تعتمل في داخلي إلى موقع التجسيد أو الفعل الملموس. على أنّ ردود فعل المتابعين لمختلف الأعمال التي تحيل على منجزي المتواضع تدلّ على توفّر حد معقول من الرضا والاهتمام، بل والشغف في بعض المواضع، مع منسوب مبهج من القبول لدى شرائح متنوّعة من المتعلّمين والمحسوبين على النخب المتابعة لما يصدر في اللغة العربية بالخصوص؛ حيث يغلب على الإنتاج في لغتنا الإنشاء مقارنة بصناعة الدلالة، لا سيما وأنّ ما أنجزتُه ضمن حقل الإنسانيات والاجتماعيات يبدو للكثير من المطّلعين على محتوياته متشعّبا ولا يجنّف في الاتجاهات السائدة في اتكائها المفضوح على الثنائيات السطحية في صياغة تصوّراتها الفكرية والمعرفية، وحتى الإبداعية أيضاً.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، أيّ مسار كنت ستختار؟

لا أعتقد أن فضولي سيبتعد كثيراً عن الانشغال بالكتابة والبحث والإبداع الفني، بصرف النظر عن مجال اشتغالي المعرفي ضمن حقل الإنسانيات أو ضمن مجالات أخرى جمالية. كما لا أنكر أنّ مجال النضال المدني والفعل السياسي وصناعة المحتويات وإعادة اختراع اليومي من خلال توسيع نطاق المدركات الجمعية، والتأثير في الرأي العام والإسهام في صياغة الانتقال وتشبيك الوساطات، أمور تستهويني جميعها، ولها قدرٌ غير قليل من الإثارة في أعماق شخصيتي.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

أريد لمن أحسب على عالمهم وأتّصل - ذائقةً وانتماءً - بثقافتهم أن ينخرطوا من دون تشنّج مغال في نبض العالم، وذلك بعد إنجاز المراجعات الضرورية الصعبة، ومن أوكدها الانصراف للعمل الجاد والكريم، واستبطان أخلاق الأحرار، وإعادة بناء الثقة مع مختلف الغيريات الثقافية والحضارية المساوية لنا، أو التي جاورتنا بسنوات ضوئية كونياً.

■ شخصية من الماضي تود لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

هناك العديد من الشخصيات التي وددت لو قُيّض لي الاحتكاك بها ومعرفتها عن قرب، حتى وإن تراءى لي أن فضولي الحرفي وانفتاحي على أزمنة مديدة بحكم نبشي في الغيرتين الزمنية والمكانية، قد دفعني جميعها إلى الحفر في جوانب متعددة تتصل بمسارات حياة من عاصرتهم أو من سبق مرورهم وجودي بقرون.

لكن المؤكد أنني اصطدمتُ صبيّاً بجماليات الصورة السينمائية، فقد قُدر لي التردّد على القاعات لمتابعة عروضها مبكّراً، ومنذ سنوات الطفولة الأولى. لذلك فإن إعادة تركيب الأزمنة والأمكنة بشكل مرئي بغرض الإجابة عن أسئلة الحاضر دون سواها، تصرُّف حرّك مشاعر الدهشة لدي، وشكل واقداً تعالق بشكل عميق مع مساري الشخصي، مطوّراً قدراتي التخيلية الذاتية. ولأنني أحببت السينما فقد تأثرت كثيراً بمنجزاً آباء الواقعية في سينما المؤلف ومن نحا منحاهم وسار على خُطى إبداعاتهم شرقاً وغرباً. فقد أذهلتني مثلاً القراءة الجمالية غير المسبوقة لـ فيلليني، إلى حدّ عقد العزم على متابعة الدراسات العليا في مجال الإخراج السينمائي. غير أن سياقات مساري الدراسي والوسط الذي نشأتُ فيه شاءت غير ذلك وحوّلتني إلى الاشتغال بالإنسانيات عبر مرافقة مسارات عفا عنها الزمان واحتفظت بها الذاكرة الانتقائية لجامعي الأخبار والحوليات وكتّاب التراجم، وهي لو تدري مادة يمكن من خلالها صناعة معرفة أدق بذواتنا أشد مضاء وفاعلية من تلك التي نعتقد أن مخالطة من يتقاسمون معنا الأيام والأعمال كفيلة وحدها بالمسك بتعقيداتها وتفاصيلها المربكة والعصيّة عن أفهامنا في أحايين كثيرة.

■ صديق يخطر على بالك أو كتاب تعود إليه دائماً؟

أستطيع دون مكذوب ادعاء أنني قارئ نهم يتوفّر على قدر كبير من المصابرة والمتابعة والدقيقة. وهو أمر انقلسمه مع عدد غير قليل ممّن أعرف سعة اطلاعهم ومقدار فضولهم أيضاً. غير أنني مع بالغ الأسف لم أرافق طوال مساري أناساً كثيرين. كما أني لم أشعر صدقاً بالحاجة الملحّة لمثل هذا الطقس المقعم بالوديّة والإصرار على تطوير دائرة المخالطة قصد الاستفادة وتقاسم الخبرات والمصالح أيضاً. وهذه واحدة من شخصيتي الافتراقية القلقة، في سذاجتها الإرادية واستعصاء جماليتها النزقة أيضاً عن فهم العديد ممن اقتربتُ منهم أو اقتربوا مني. فقد كان لي اطّلاع مُبكر على الإنتاج الفكري وعلى بعض الجوانب المتّصلة بالفلسفات الغربية والشرقية، سبق بكثير مطالعتي للأعمال الأدبية وتذوّق الشعر والروايات العالمية والأدب الكلاسيكي وكتب التراث العربي الإسلامي أيضاً.

أمّا ضمن تخصّصي المعرفي الضيق فأشير إلى أنّ أعتبر أنها قلباً مجرى إدراكي الشخصي لحرفة المؤرّخ، وأقصد تحديداً كتاب «حرب البلوبوناز» لمؤرّخ أثينا توقيديدس، و«خريف العصور الوسطى» للمؤرّخ الهولندي يوهان فيزنغا. أمّا بخصوص مصادر التراث العربي الإسلامي فإنني لم أقرأ صدقاً مؤلّفاً أروع من «عثمانية» الجاحظ.

■ ماذا تقرأ الآن؟

أنهيتُ في استعجال مفعم باللذة قراءة رواية المهندس الجزائري عبد الوهاب عيساوي «الديوان الاسبرطي». كما قرأتُ بنفس النهم رواية لا تقلّ عنها إثارةً كتبها الصحافي البرتغالي رودريغاش دوس سنتوس، عنوانها «الصيغة الرياضية المشفّرة لله».

■ ماذا تسمع الآن وهل تقترح علينا تجربة غنائية أو موسيقية يمكننا أن نشاركك سماعها؟

أطرب كثيراً لألحان بليغ حمدي وعمر خيرت ومحمد عبد الوهاب التي وسمت بشكل لافت عصرها وتُواصل بريقها لعشريات مديدة. كما أحب كثيراً محاكاة الموسيقى الكلاسيكية في إعادة توزيع أغاني التراث وحتى عروض المنوّعات ذات الزخم الشعبي في موسيقى الشعوب، وكذا الموسيقى الإثنية والموسيقى الروحية في ضروبها وألوانها المتعدّدة. كما أنني غير منقطع عما يُسمّى حاضراً فنّ الشوارع والموسيقى البديلة ضمن أعمال بعض المجموعات وتجارب العديد من الفنّانين على غرار مجموعة «اتجاه إجباري» المصرية، والأعمال الفنية لعازفة الأكورديون يسرى الهواري، وعازفة العود كاميليا جبران، والفنانة المغربية نبيلة معن، وغيرهم.

بطاقة

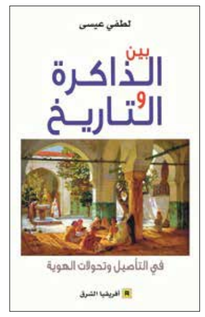

مؤرّخ تونسي من مواليد 1958 بالقيروان. من أبرز أعماله: «أخبار المناقب: في المعجزة والكرامة والتاريخ» (1993)، و«مميّزات الذهنيات المغاربية في القرن السابع عشر» (1994)، و«مغرب المتصوّفة من القرن 10 إلى القرن 17: الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي» (2005)، و«كتاب السير: مقاربات لمدوّنات المناقب والتراجم والأخبار» (2007)، و«بين الذاكرة والتاريخ» (2015)، و«أخبار التونسيّين» (2018).

يوميات الوباء

في الموجة الثانية

آلات من وداعٍ هادر

تتساءل طفلةٌ بعتاب رؤوف: لماذا لا يستسلم الفيروس؟ أي انتصار يريد؟ من جَرَحَه؟ من سَرَق العابَه وكُتبَه؟ لماذا يتدخّل في صداقتها مع الشمس والهواء والقطط؟ لماذا يتلكّأ في الرحيل؟ هل تورّط في غَمْيضة لا نهائية؟ لماذا لا يستلقي في سريره الجالس أبداً على عرش «الهُناك»، المغلوب في كلّ الحروب.

مصطفى قصقصي

نباتات: من حديقةٍ مفاجئةٍ في قلبي المشدود كحبل غسيلٍ على شرفةٍ وقتَ زجاجيّ أراقب الحياة السريّة للنباتات: صمتُها الأخضر، قلقُها الأوركيدي، خساراتُها القانية، ولهُها النرجسيّ، وساوسُها الزنبقيّة، ذكاؤها العاطفيّ الخارق، لوعاتُها المنحلّة إلى خريف، ولعُها العابر بالظلال، حديثُها الفلسفيّ المشمس مع الحشرات، ذواتُها المبذورة بحنان صبور في حقول الهواء. كم أغبطُها: كائنات اختارت اللّون جسداً، والرقص طريقة حياة.

الحياة خارج الرحم:

تضلّ الحياة أحياناً طريقَها إلى الحياة. يتلعثم قلبُها. يُعتِم إيقاعُها. يتبخّر صوتها. يُطِلّ مهندِس الصوت من السيناريو الوجوديّ الصامت معتذراً: لم يَعُثرْ في خيالها على صرخةٍ بديسبلات كافية لتمزيق غشاء الغياب. سنسمعُه جيّداً وهو ينادي عليها بأسمائها الموسيقيّة البديعة لكي تستيقظ من نومها وتمشي على غير هدىً في الغابات. كم سننسى ونتذكّر من جديد أننا مخلوقات من مسافات وانتظارات وفراقات وواتات فاتنة. نحن فوات أوان. آلات من وداع هادر.

موجة ثانية:

فيروس عنيدٌ كحبّ لا يَكتفي بحياةٍ واحدة. ولا بموتٍ واحد. عنيف كحياةٍ مُتبَسّرة لا تريد أن تضيّع فرصتها في أن يكتشف العالم موهبتها في احتمال الأمل. خائف كبحر هجرتْهُ العواصف. هل نحن موج هذا البحر، مياهه المتقاذفة المتشتّتة بغرقها؟ أعماقُه المنكسرة غير القابلة للترميم؟ تماثيل ملحه الناظرة إلى وراء؟ جداريّة أرقِه المتارجحة في العراء؟

طفولة:

تتساءل طفلةٌ بعتاب رؤوف: لماذا لا يستسلم الفيروس؟ أي انتصار يريد؟ من جَرَحَه؟ من سَرَق العابَه وكُتبَه؟ لماذا يتدخّل في صداقتها مع الشمس والهواء والقطط؟ لماذا يتلكّأ في الرحيل؟ هل تورّط في غَمْيضة لا نهائية؟ لماذا لا يستلقي في سريره ويستمع إلى قصّة للأطفال عن شجرة التفاح الأنانيّة التي تمادت في تجريح مشاعر شجرة الزيتون؟ لماذا لا ينام؟ لماذا لا يحلم بحياة أخرى؟

عبد الحليم:

على يوتيوب أحدّق في صوت عبد الحليم حافظ المسرف في الحُزن. صوت يحمل جسماً لا يتماسك إلاّ ليحمل حُزنه. عيناه نفقان من حبّ لا ضوء في آخرهما، بداه تبتهلان لخالق الفقدانات والعزاءات كلّها. «شوف بقينا فين»: رجلٌ يخاطب قلبَه كما خاطب امرؤ القيس صاحبَه الذي بكى لما رأى أن الدرب دونَه، وأيقن أنهما لاحقان بقيصرا، أي بما يملك النفس من عشقٍ مستبدّ يمجّد الحياة على حافّة موتٍ ما: «نحاول مُلكاً أو نموت فنُعذرا». لا صحراء سوى القلب. لا سراب سوى الفرد. لا دليل سوى الحب. جاء في مصارع العشّاق عام 2050: «في سنة الوباء كان العشّاق المنهكون ينهالون على أشواقهم بفؤوس وحدتهم الحادّة كحطّابين يعدّون العدة لشتاء طويل، بينما كان إخوةٌ لهم ينهبون النار من شهواتهم العابرة كقطّاع طرق ملثّمين بالخوف ويدخّرونها لحبٍّ أو لموتٍ آخر».

طيور:

تفرد الطيور أجنحةَ عزلتها الشفيفة على الإنسان القديم الرابض في كهوفه الحديثة المرفّهة التي يسمّيها بيوتاً، «الحيوان المريض» كما وصفه هيغل راثياً لحاله ولارتحاله عن الطبيعة، الكائن الهاملتيّ المطعون في ظهره بالحيرة المسجون في السؤال، الجنرال المأساويّ الطريد في متاهة الأرض، المتنحّي دائماً عن عرش «الهُنا»، الجالس أبداً على عرش «الهُناك»، المغلوب في كلّ الحروب.

مدرسة:

الأحرُف المحجورة في الصفوف المغلقة تتنفّس بصعوبة، تسعل دون توقّف، يُغمى عليها بين السطور دون أولاد يلمسونها ويحرسونها بأصابعهم في ملامجها سحوب حياة داخليّة تمكّن منها الصقيع الإلكترونيّ وأحالها إلى بيكسلات متناثرة، ومتنافرة. لا رائحة لها ولا رنين، تجرجر كلماتها الميتورة على الشاشات المرصعة بمربّعات خلّابة ومرعبة كفلول جيش أبجديّ مهزوم على نخوم التكنولوجيا: آلاف الآيلة للسقوط في الأسر، الباء البائسة في التنائي، الباء البائسة في نهاية الحب على جدران المدرسة الأخيرة يدٌ مقاومة كتبت: عن بعد أو عن قرب، التعليم الوحيد الممكن هو التعليم عن حبّ!

(شاعر واختصاصي نفسي عيادي من فلسطين)

مدخل لحروب حقيقية، ضحاياها الإسلام وحرية الرأي

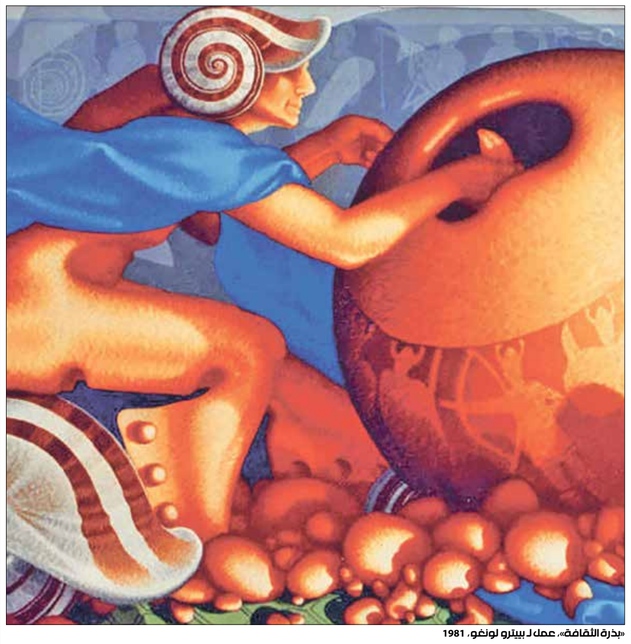
«بذرة اللّقافة»، عمل لـ بييترو لونغو، 1981

تجربة

كمالا إبراهيم إسحاق مرآة الطقوس النسائية في السودان

خارج لوحة الاعتراف الفرنسي

كان من المقرّر أن تتسلّم اليوم الفنانة السودانية وسام الجمهورية الفرنسية للآداب، لكنها أبلغت السفارة الفرنسية في بلدها منذ أيام أنها لن تستلمها

لارا عبود

الرسم، الجسد، العائلة، النسوية، الصوفية والروحانيات، التقاليد، السودان ومرور الوقت، هذه بعض ملامح أشبه بمداخل إلى الفن الذي تقدمه الفنانة السودانية كمالا إبراهيم إسحاق (1939) منذ عقود. مؤخراً، تداولت وسائل الإعلام بسبب رفضها وسام الجمهورية الفرنسية للآداب، كرد فعل موقف على خلفية الرسوم المسيئة للنبي محمد وتداعياتها.

كان من المقرر أن تتسلم إسحاق الوسام اليوم، الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر، لكنها أبلغت السفارة الفرنسية في الخرطوم، حيث تعيش، أنها لن تفعل. سبق لإسحاق أن كرّمت بعديد الجوائز والأوسمة العالمية، ففي العام الماضي مُنحت «جائزة الأمير كلاوس» الهولندية، ولا شك أن الالتفات إلى تجربتها كامرأة فنانة سودانية (كانت من أوائل من درسن الفن في الخرطوم قبل أن تتابع تعليمها في إيطاليا ثم لندن) ارتبط كذلك بأحداث الثورة السودانية التي لفتت الأنظار إلى الثقافة والفنون في البلاد.

عاشت إسحاق في لندن في الستينيات، وعادت راغبة في تعليم الفن وممارسته في بلادها عام 1971، وهناك التقت بالفنانة نايلة الطيب والفنان محمد حميد شداد وأسّست جماعة «البلوريون» (كريستاليون) التي تقوم على موقف جمالي مفاهيمي يسعى إلى شكل فني جديد يقف في الجهة المقابلة لـ«جماعة الخرطوم» الفنّية ذات التوجه التقليدي من حيث ذكورية الموضوع ومن حيث المعالجة الفنية للزمان والمكان. أطلق «البلوريون» المانيفستو الخاص بهم عام 1978 وضمنه قولتهم: «الكون مشروع بلورة شفافة بلا حجاب».

اختارت الجماعة الكريستال لأنه الأكثر شفافية، لأن لا عنصر فيه يحجب عنصراً آخر، فلا انتقائية لما يظهر وما لا يظهر فيه. الكريستال يكشف كل ما يقف خلفه، وانطلاقا من رمزيته قال الكريستاليون إنهم يريدون لغة وشعراً وحياة جديدة وجماليات نقية.

تستمدّ أعمال كمالا إبراهيم إسحاق معظم ألوانها من الطين والتراب والطبيعة السودانية في حالة من الشحوب، وفيها حضور كبير للنساء في تجمّعاتهنّ، أو ضمن الحالات الطقسية مثل حفلات الزار وطقوس طرد الشياطين الشعبية. هنا، تستعير الفنانة تفاصيل من الأيقونات، لكنها بدلاً من أن تقرأها لشخصية واحدة، تحشد فيها الوجوه، كأنما أمام أيقونة/مرآة ينعكس فيها الوجه إلى ما لانهاية، كلها وجوه نساء وكلهن في مكان ضيق ومساحة محددة بزوايا حادة، إنهن نساء في حالة من الخوف الجماعي يمارسن طقوسهنّ العريقة للخروج من مأزق جسديّ أو نفسيّ، وتصوّرهن كمالا في عدة لوحات نتابع من خلالها كيف يجري إنهاك الجسد مراراً وتكراراً من لوحة إلى أخرى إلى أن تطير الوجوه وحدها متفرقة في الفراغ.

في مرحلة لاحقة بدأت إسحاق بالانسحاب من مجموعات النساء وبدأت ترسم المرأة في الطبيعة بالأخضر القوي والكثيف بين نباتات أفريقية أو ضمن جمهرة من الأشجار، لكن الجذوع نفسها سيكون لها وجوه بشرية. دائماً هناك ما هو سحري وخرافي ومخيف ومقلق في أجواء لوحاتها، دائماً ثمة شيء غير متوقع يحدث في بقعة ما من العمل الفني.

دائماً ثمة شيء غير متوقّع يحدث في بقعة ما من أعمالها الفنية

كمالا إبراهيم إسحاق (أ. محمد نور الدين)

فعاليات

تنطلق، عند الرابعة والنصف من عصر بعد غدٍ الاربعاء، الجلسة الثالثة من ورشة مسرح علاجي بعنوان **الخيال كفعل** في «استديو زقاق» ببيروت، تقدّمها الفنانتان **لميا ابي عازار** (الصورة) و**مايا زبيب**. تطرح الورشة مواضيع مثل الارتجال كفعل عفوي يخلق الحاضر، والعمل التخيّلي كفعل في الحاضر بإمكانه التأثير على الواقع.

حتى العاشر من الشهر الجاري، تتواصل الدورة التاسعة والعشرون من **مهرجان وموتمر الموسيقى العربية** في القاهرة، والتي انطلقت امس. من بين الفرق المشاركة: «فرقة الموسيقى العربية للتراث» (الصورة) بقيادة **فاروق البابلي**، و«كايرو سنتبس» بقيادة **ناير ناجي**، و«فرقة الحفني» بقيادة **هشام نبوي**، و«اوبرا الاسكندرية للموسيقى والغناء العربي» بقيادة **عبد الحميد عبد الغفار**.

يُعرض، عند السادسة من مساء غدٍ الثلاثاء، في «مركز خليل السكاكيني الثقافي» برام الله، الفيلم الوثائقي **يمشي وبعد** (2018) للمخرجة اللبنانية **سينثيا شقير**. يروي العمل كيف قصدت فرقة مهرّجين جزيرة ليسبوس اليونانية عام 2017 في مهمتهم الاعتيادية لرسم الابتسامة على وجوه لاجئين هربوا من الحرب السورية.

الضوء والعزلة عنوان معرض استعادي للفنان البلجيكي **ليو سبيليارت** (1881 - 1946)، والذي افتتح في «متحف اورسماي» بباريس في الثالث عشر من الشهر الماضي، ويتواصل حتى العاشر من كانون الثاني/ يناير المقبل. اهتم الفنان برمزية الظلام في منظوره للوجود، موظّفاً عناصر مستمدة من ثقافته الفلمنكية.